وقفة مع الرحّالة ابن جبير الأندلسي
(نحو 539 ـ 614 هـ) في رحلته المدونة

بقلم الأستاذ يوسف عرّوج

المقدمة

إنها وقفة مع الرحالة الأندلسي ابن جبير المدونة، هذه الوقفة تجعلنا نتلمس «الثوابت والمتغيرات» في أوضاع أمتنا العربية الإسلامية عبر قرون (قياساً للشاهد على الغائب) و(الغائب على الشاهد).

إنها تبادل في وجهتي النظر بيننا وبين الرحالة ابن جبير إلى عصرنا وعصره، وهي وقفة تمتزج فيها اللوعة الفنية بالمتعة، والأسى بالتأسي في كثير من المواطن والمواضع في الرحلة، وهي تكريس للمزج بين دلالة اللفظتين ـ التذكرة والاعتبار ـ المستمدتين من مضمون الرحلة نفسه، كما أنهما مستمدتان من التسميتين (اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك)، أو (تذكرة بالأخبار من اتفاقات الأسفار).

1 ـ ترجمته : (نسبه وحياته وصفته):

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير، الكناني، البلنسي الشاطبي، نزيل شاطبة. وُلِدَ نحو سنة 539 هـ[1]، وتوفي سنة 614 هـ

بالاسكندرية. درس على أبيه وشيوخ عصره مختلف العلوم والآداب[2]. ولقد برهن ابن جبير على شغفه بالعلم وطلبه له في منابعه وحبه الشديد للعلماء، مما جعله يسعى بجد إلى مجالستهم في كل مكان حطّه به رحاله أثناء رحلاته. وهو ما يجعلنا نجد في قائمة أساتذته «من لقية بسبتة ومكة وبغداد وحران ودمشق وغيرها بالإضافة إلى علماء الأندلس؛ وكانت العلوم التي عني بها علوم الدين من فقه وحديث وقراءات؛ وما اتصل بها من علوم اللغة والنحو والأدب»[3]. ولقد عاش ابن جبير طالباً للعلم شغوفاً به مشتغلاً بالأدب؛ يقول المقري في ذلك: «وعني بالأدب فبلغ الغاية فيه وتقدم في صناعة القريض والكتابة»[4]؛ ويصفه ابن الخطيب بقوله: ... «وكان أديباً بارعاً، شاعراً مجيدا... كتب بسبتة عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن بغرناطة وتوجه إلى المشرق وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته؛ ونظمه فائق ونثره بديع وكلامه مرسل حسن وأغراضه جليلة، ومحاسنه ضخمة، وذكره شهير»[5].

إن هذه الصفات التي اتصف بها ابن جبير ستضفي على رحلته المدونة قيمة أدبية كبيرة إضافة إلى قيم أخرى متنوعة: تاريخية، وحضارية، ودينية، ومذهبية، واجتماعية، واقتصادية، وتجارية، وجغرافية، وأدبية) وهي من أشهر آثاره وهي التي تعرف باسمه (رحلة ابن جبير)، والموسومة أيضاً: «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك»[6]، أو «تذكرة بالأخبار من اتفاقات الأسفار».

2 ـ رحلاته الثلاث: أسبابها وزمنها:

قام الرحالة ابن جبير بثلاث رحلات إلى المشرق حج في كل واحدة منها وتقترن كل منها بسبب مباشر (أو أسباب) غير أنه لم يدون إلّا رحلته الأولى.

أ ـ سبب رحلته الأولى وزمنها: كان ابن جبير يكتب عن السيد أبي سعيد عثمان بن عبد الله الذي تولى غرناطة بعد سبتة ويذكر لنا المقري حادثة وقعت لابن جبير مع السيد أبي سعيد عثمان هذا ويقرنها بالرحلة ... يروي المقري عن ابن الرقيق قوله عن هذه الحادثة كما قال ابن الرقيق ـ من اعلام العارفين بالله ـ كتب في أول

أمره عن السيد أبيَ سعيد عثمان بن عبد المؤمن صاحب غرناطة، فاستدعاه، إلى أن يكتب عنه كتباً وهو على شرابه، فمد يده إليه بكأس، فأظهر الانقباض، وقال: سيدي، ما شربتها قط، فقال: والله لتشربن منها سبعاً، فلما رأى العزيمة شرب سبع كؤوس فملأ له السيد الكأس من دنانير منها سبع مرات وصب ذلك في حجره فحمله إلى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير ثم رغب إلى السيد وأعلمه أنه حلف بإيمان لا خروج له عنها انه يحج في تلك السنة، فأسعفه، وباع ملكاً له تزود به، ونفق تلك الدنانير في سبيل البر»[7]؛ إن هذه الرواية تجعل هذه الحادثة ـ حادثة شرب الخمر ـ سبباً مباشراً للقيام بالرحلة الأولى ـ من رحلاته الثلاث ـ واداء فريضة الحج تكفيراً عن شرب الخمر مضطراً، وهو ما يشير إلى تدينه وتقواه وورعه، وسيكون لذلك أثره الواضح في تدوينه لرحلته هذه، وخاصة في أحاسيسه ومشاعره وملاحظاته وانطباعاته وأحكامه ومواقفه وآرائه مما يصادف ويقابل؛ وأما تدوينه لرحلته هذه فانه لا علاقة لها بالحادثة والسبب المذكور آنفاً، ولكنه يدخل في إطار آخر يعود أساساً إلى شخصية ابن جبير الأدبية واهتماماته بالكتابة وتسجيل مشاهداته وانطباعاته وأحكامه وان هذه الرحلة المدونة كانت منطلقاً جديداً لحياة جديدة عند ابن جبير؛ تمثلت في القيام بالرحلتين الأخيرتين اللتين مكنتاه من الاطلاع على بيئات متنوعة والاستفادة العامة منها؛ وأسهمتا في توسيع معارفه في جوانب متعددة (حضارية بيئية؛ وتنظيمية؛ واجتماعية؛ واقتصادية؛ ومذهبية) وتكوين نظرة شاملة حول العالم العربي الإسلامي ـ في عصره ـ مدعمة بتجربة المشاهدة والمعاينة والاحتكاك المباشر وبالخبرة الطويلة في الحياة والقدرة الفائقة على تسجيل ما يراه مهماً ذا دلالة معينة تخدم الغرض المقصود منها؛ كما مكنته الرحلات الثلاث أيضاً من الابتعاد عن بلاطات الحكام وخاصة الأمزجة المتقلبة أمثال السيد أبي سعيد عثمان هذا الذي أذنب في حقه ـ شرعاً ـ وان كان قد أفاده ـ وأفادنا معه بسلوكه ذاك معه اذ دفعه إلى القيام بالرحلة الأولى ـ وتدوينه لها ـ والتي أعقبتها الرحلتان: الثانية والثالثة وكان بذلك بحق «الرحالة ابن جبير» ـ صاحب الرحلة التي تبوأت مكانتها الأدبية المرموقة في باب أدب الرحلة.. ولا يعني هذا أن السبب المباشر المتمثل في حادث شرب الخمر هو بالضرورة السبب الحقيقي والجوهري لكل ذلك، ولكن ربما

يكون تَعطية لأسباب أخرى كامنة في نفس ابن جبير بالدرجة الأولى، الذي شرع في رحلته الأولى (المدوّنة) في سنة 578 هجرية وعمره 39 سنة بينما كان الأمير الموحدي أبو سعيد عثمان قد توفي سنة 571 هجرية[8]. فمن المحال إذاً أن يكون الحج قد تم في السنة نفسها التي وقعت فيها الرحلة وأداء الفريضة بسبب هذه الحادثة فقط، لما بين التاريخين المذكورين من مدة طويلة، أضيف الى ذلك أن الرجل نفسه ـ ابن جبير ـ يثني في رحلته المدونة على حكم الموحدين وتدين حكامهم ثناء كبيراً ويذم غيرهم الذين يصمه بالبعد عن الدين ويستثني من حكام المسلمين من غير الموحدين ـ صلاح الدين الأيوبي[9]، وتبقى الإشارة إلى أن ابن جبير يذكر لنا سبباً واضحاً دفعه للقيام برحلته الأولى وهو القيام بفريضة الحج[10].

ب ـ سبب رحلته الثانية وزمنها:

قام ابن جبير برحلته الثانية في ربيع الأول سنة 585 هـ (وعمره نحو 46 سنة) بعدما بلغه فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس ـ سنة 583 هـ ـ يقول ابن عبد الملك المركشي، كان ذلك من أقوى الأسباب التي بعثته على الرحلة الثانية، فتحرك لها من غرناطة أيضاً.. قال: وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام وزيارة المصطفى ﷺ وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد متوجهاً وشهراً واحد متصرف، ووصل إلى غرناطه يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سبع وثمانين[10] عام 587 هـ ولا نملك تفاصيل عن هذه الرحلة أكثر مما ذكره ابن عبد الملك؛ لأن صاحبها لم يدونها على الأشهر أو لم يصل إلينا تدوينها ـ إن كانت قد دونت فعلاً؛ ولكن ارتبطت هذه الرحلة باستعادة صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس وهو ما يدل دلالة قاطعة على أهمية «الحدث» عند ابن جبير وهو واحد من أفراد الأمة الإسلامية الذين يعنيهم هذا الأمر.

جـ ـ سبب الرحلة الثالثة وزمنها:

قام ابن جبير أيضاً برحلته الثالثة وعمره نحو 62 سنة بدأها من سبتة بعد وفاة

زوجه الفاضلة «عاتكة» المدعوة «بام المجد» ابنة الوزير الحسيب أبي جعفرأحمد بن عبد الرحمن الوقشي بأيام ـ وكانت وفاتها يوم السبت... لعشر خلون من شعبان عام أحد وستمائة ـ 601 هـ»، بعد زمانة طاولتها مدة..[11]. ووصل إلى مكة أثناء عام 602 هـ وجاور بحرم الله الشريف طويلاً وبيت المقدس، ثم تحول إلى مصر والاسكندرية فأقام بها يحدث ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه[12] في شعبان سنة 614 هـ وعمره نحو 75 سنة. لقد كان ابن جبير كلفاً بزوجه عاتكة أم المجد فعظم وجده عليها، ونظم فيها ديوانه الضائع «نتجية وجد الجوائح في تأبين القرين الصالح»... ويمكن اجمال القول : ان رحلات ابن جبير الثلاث قد ارتبطت كل واحدة منها ـ في الظاهر ـ بسبب مباشر، حتى وان لم يكن هو الشبب الحقيقي والوحيد الداعي للقيام بها، فالرحلة الأولى اقترنت «بحادثة شرب الخمر» وكان الغرض الظاهر منها التكفير عن الذنب بأداء فريضة الحج وإن كانت إلى جانب ذلك رحلة سياحية وثقافية وأدبية يتمثل البعد السياحي فيها في تجوال ابن جبير وطوافه في الآفاق والأمصار غير الحجازية ـ أيضاً ـ وأما البعد الثقافي في الرحلة فيتمثل في اجتماع ابن جبير إلى علماء العصر ووعاظه وزهاده وشيوخ العلم في أهم الأمصار غير الحجازية ـ أيضاً ـ وأما البعد الثقافي في الرحلة فيتمثل في اجتماع ابن جبير إلى علماء العصر ووعاظه وزهاده وشيوخ العلم في أهم الأمصار التي زارها وطاف بها ومجالستهم والسماع منهم والأخذ عنهم وأما البعد الأدبي في الرحلة فيتمثل في هذا الأثر الأدبي ـ المهم ـ الذي نتج عنها.

والرحلة الثانية ارتبطت بحدث تاريخي مهم في تاريخ أمتنا الإسلامية هو استعادة بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي ـ سنة 583 هـ ـ ولعل تحرير القدس الشريف يعد من (أقوى الأسباب للحج وزيارة المسجد الأقصى[13]، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين. وهو ما نستشفه من قوله: «وقضى الله برحمته بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام وزيارة المصطفى ﷺ وزيارة المساجد الثلاثة..[14].

الرحلة الثالثة جاءت اثر حادثة جليلة كان لها الأثر الشديد على نفسه وهي وفاة زوجه إذا ضاقت به الأرض الأندلسية والمغربية؛ بما رحبت فقام بأداء الفريضة للمرة الثالثة والمجاورة بمكة المكرمة والجلوس إلى التدريس بعد ذلك

وبخاصة في الاسكندرية وأغلب الظن أنها لم تدون ونحن لا نملك عنها إلا القليل؛ لأنه لم تعرف عن ابن جبير رحلة مدونة غير رحلته الأولى وربما يرجع ذلك إلى أن تجربته الأولى في التدوين تكون قد أغنته عن تدوين الرحلتين الأخيرتين؛ وذلك لأنه كان في المرة الأولى يقدم على موضوع طريف من جهة ومن جهة ثانية كان يريد تعريف المغاربة والأندلسيين بمشاهداته أثناء الرحلة ومعايناته وسماعه ولهذا جاءت التسمية الثانية (تذكره بالأخبار من اتفاقات الأسفار) وبعد أن كان له ذلك بشكل أكثر شمولية وتنوعاً في التجربة الأولى.

3 ـ الرحلة المدونة:

أ) مضمونها ومحاوره:

1 ـ المسار (الذهاب والإياب والزمن):

بدأ ابن جبير يوم الخميس 8 شوال سنة 578 هـ رفقة صديقه ابن جعفر أحمد بن حسان القصاعي (الرحلة ص 41، 44، 110، 111) من غرناطة، ولم يبدأ ابن جبير في تدوين رحلته وتقييد مشاهدته؛ ومعايناته وأحاسيسه وانطباعاته وآرائه وأحكامه إلا في 30 شوال سنة 578 هـ وهو مبحر من سبتة إلى الاسكندرية غير أنه تلافى ما فاته؛ فعدّد المدن التي مرّ بها فذكر أنه خرج من غرناطة إلى جيان مارّاً بحصن القبذان ثم حصن قبرة ثم جزيرة ظريف ثم عبر منها إلى جبل طارق؛ واقتصر على ايراد أسماء المدن الأندلسية والمغربية ولم يحاول لها وصفاً لأنها معروفة لذا مواطنيه الذين كتب لهم المذكرات ثم ذكر أنه ذهب إلى سردينيا قادماً من سبتة.

وفي شهر ذي الحجة سنة 578 هـ يصل إلى الاسكندرية، فيذكر بعض أخبارها و آثارها، وبخاصة منارها، ثم ذكر مصر والقاهرة وعدد آثارهما العجيبة ومشاهدهما المشهورة وبعض المرافق فيها. وفي شهر محرم سنة 579 هـ ـ رأس السنة الهجرية الجديدة يعبر الطريق المؤدي إلى البحر الأحمر ويعدد بعض المواضع التي اجتازها الركب وما اعترضه في أثناء ذلك من المصاعب وبخاصة من أهل عيذاب

«آفة الحجاج» ولا يصل الركب إلى جدة إلا بعد أن تجرعوا مرارة الطريق وأهوال بحر فرعون فكان ذلك في شهر ربيع الآخر من سنة 597 هـ وبعد عرض لبعض المعاملات السيئة التي تعرض لها الركب في أرض الحجاز انتقل من جدة إلى الحرم الشريف، وشهر جمادى الأول وصل إليه وأفرد له وصفاً يليق بمقامه، ثم ذكر مكة وآثارها الكريمة وأخبارها الشريفة ومشاهدها الشهيرة وفي شهر رجب الفرد سنة 579 هـ عمّر الركب، وشهد ابن جبير شهر رمضان المعظم بها وشوال إلى أن حان موسم الحج فأدّى المناسك ووصف لنا ذلك بدقة وتفصيل، ثم حلّ شهر محرم سنة 580 هـ وهو في المدينة المنورة، فذكر مسجد الرسول ﷺ وروضته المقدسة والمشاهد المكرمة بالبقيع وأُحد.

ولأن ابن جبير ضجر من مسار الرحلة في الذهاب لصعوبته وخطره، وتحقيقاً لرغبة في نفسه لاثراء تجربته واغناء «مدونته» وتنويع مشاهداته ومعايناته وسماعه فضّل أن يسلك في الإياب مسلكاً مغايراً، فالتحق بالركب العراقي، فاتجه معه نحو مدينة السلام ـ بغداد ـ فمر بمدينة الكوفة ثم الحلة قبل أن يصل إليها في شهر صفر سنة 580 هـ فعدد ما رآه وعاينه، وبخاصة مجالس العلم والوعظ بها إضافة إلى مرافقها ومساجدها وأبوابها ثم غادرها في اتجاه الموصل ماراً بمدينة تكريت، وفي شهر ربيع الآخر فذكر الشهير ـ الأموي ـ وأفرد له وصفاً مسهباً ودقيقاً، وذكر بعض أحوال البلاد وبعض المرافق ـ والآثار. ثم غادرها في شهر جمادي الآخرة إلى مدينة صور ماراً بمدينة بانياس ومكة ـ وأقلع عائداً إلى صقلية في مركب شراعي افرنجي في شهر رجب الفرد سنة 580 هـ. وعدد بعض مدنها وبخاصة الساحلية مثل مدينة شطلودي وثرمة واظرابنش، ثم أقلع المركب بحراً إلى الأندلس وكان الوصول الى مدينته في شهر محرم 581 هـ، فكانت مدة الرحلة عامين وثلاثة أشهر ونصف.

ـ صعوبات في مسار الرحلة (في البحر والبر):

اعترضت ابن جبير صعوبات كثيرة في رحلته الحجازية، ابتداء من انطلاقه من مدينة سبتة مبحراً الى الاسكندرية، ولقد قدم لنا ابن جبير وصفاً دقيقاً لهذه الصعوبات والأهوال في البحر ممزوجاً بالأحاسيس الحية والمشاعر القوية وأبرز لنا

المعاناة الشديدة التي كابدها الركاب في السفينة (عصفت علينا ريح هال لها البحر وجاء معها مطر ترسله الرياح بقوة كأنه شآبيب سهام، فعظم الخطب واشتد الكرب، وجاءنا الموج من كل مكان أمثال الجبال السائرة. فبقينا على تلك الحال الليل كله ـ واليأس فبلغ منا مبلغه.. تمكن اليأس من النفوس وارتفعت أيدي المسلمين بالدعاء إلى الله عز وجل ـ واقمنا على تلك الحال النهار كله (الرحلة ص 43) ولا يقتصر الخطر على الحجاج في البحر المتوسط فقط بل امتد واشتد في البحر الأحمر عند اجتيازه إلى الجهات الحجازية بسبب سوء الوسائل والمراكب التي تستعمل لشحن الحجيج إلى بر مدينة جدة، وتسمى هذه المراكب «بالجلاب» والكيفية التي يستعملها أصحابها للحصول على الكسب السريع على حساب أرواح الحجيج» ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت، وذلك أنهم يشحنون الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض؛ وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة، يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء، حتى يستوفي صاحب الحلبة منها ثمنها في طريق واحدة، ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك ويقولون: «علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح» هذا مثل متعارف بينهم (الرحلة ص 65) وهو ما جعل ابن جبير يحنق على هذه الطريقة ويثور عليها قائلاً: «فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة في سبيل الله هذه البلاد الحجازية لما هم عليه من حل عرى الإسلام واستحلال أموال الحج ودمائهم فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس اسقاط هذه الفريضة عليهم فاعتقاده صحيح لهذا السبب، وما يصنع بالحاج لا يرتضيه الله عز وجل (الرحلة ص 60) وبحسبه يكون السيف درة هذه البلدة وأن يكون طريقه على الشام إلى العراق، ويصل إلى أمير الحجج البغدادي.. وإن طال طريقه بهذا التحليق فيهون لما يلغى بعيذاب ونحوها» (الرحلة ص 65) وهو ما فعله ابن جبير عند العودة إلى وطنه الأندلس. غير أن أهوال البحر تطارد ابن جبير في العودة أيضا عندما انطلق من مدينة عكة، فيقول عنها: «ظهرت جبال في البحر، وقد اشتدت الريح الغربية وتوالى أعصارها، وكانت تنقلب بالقبول والدبور.. (الرحلة ص 219) وقد كنا مدة السنة وعشرن يوماً.. التي لم يظهر لنا فيها بر نرجم الظنون ونغازل الكنون» (الرحلة ص 219). بعد أن «وقع اليأس من الدنيا، وودعنا الحياة بسلام، وجاءنا الموج من كل مكان...» انها معايشة لتجربة ركوب البحر

وقدرته على تقديمها صوراً حيّة، لمعاناة تجرع الموت البطيء» «فلما تحققنا أنها هي قمنا فشددنا للموت حيازيمها، وأمضينا على الصبر الجميل غرائمنا» (الرحلة ص 223). وهذه الصور تتكرر إلى أن يسّر الله لأبن جبير ومن معه بالوصول إلى برّ الأندلس فكانت الفرحة الكبرى بذلك «فحدقت الأبصار لهذا البر سروراً بمرآه واستبشرت النفوس بالدنوّ منه» (الرحلة ص 239 ـ 240).

إن تجربة ركوب البحر غنية، خاصة إذا طالت مسافة ووقتاً، مثلما هو الحال عند ابن جبير، غير أن هذه التجربة ـ على مرارتها لم تثن صاحبها الاقدام عليها مرة ثانية وثالثة.. ولم تكن الصعوبة تكمن في المسار البحري فقط عند القيام بالرحلة الحجازية، وإنما هناك صعوبات برية أخرى تتعلق بقساوة الطبيعة مثلما هو الحال ببلدة عيذاب التي «لا رطب فيها ولا يابس.. والركوب من جدة وإليها آفة للحجاج عظيمة إلا الأقل منهم، ممن يسلمه الله عز وجل وذلك أن الرياح تلقيهم على الأكثر في مراس بصحارى تبعد منها مما يلي الجنوب، فينزل إليهم البجاة ـ وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال ـ فيكرون منهم الجمال ويسلكون بهم غير طريق الماء فربما ذهب أكثرهم عطشاً... وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المجهلة على قدميه، فيصل ويهلك عطشا، والذي يسلم منهم يصل إلى عيذاب كأنه منشر من كفن (الرحلة ص 64).

4 ـ النقد والانتقاد (الآراء والأحكام والمواقف):

إن ابن جبير سجل لنا في رحلته كثيراً من المظاهر السلبية، وهي ما دفعته الى نقدها أو ابداء رأيه وإصدار حكمه عليها، ابتداء من المعاملة السيئة التي يتعرض لها الحجاج من الحكام وأعوانهم، وموقفه منهم يتراوح ما بين النقد الهادئ والثورة العارمة والدعوة إلى جهادهم يبدأ ذلك من أول احتكاك لابن جبير والركب الذي جاء معه بميناء الاسكندرية بالأعوان والسلطان وأمنائهم» فمن أول ما شهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء المركب من قبل السلطان لتقييد جميع ما جلب فيه فاستحفز جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء

بلادهم وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك وما لم يحل، وكان أكثرهم متشخصين بأداء الفريضة.. (الرحلة ص 44).

وهذه إشارة مهمة وذكية من ابن جبير عندما حصر المعاملة السيئة في فئة محددة هي فئة المسلمين فقط لأن المركب كان فيه غيرهم فهؤلاء أكثر حظاً من المسلمين في بلاد المسلمين، ومن تمام الامعان في الإساءة والتضييق على المسلمين، أن تمارس عليهم استنطاقات مخابراتية واستنزل أحمد بن حسان ـ منا ـ ليسأل عن أبناء المغرب وسلع المركب، فطيف به مرقباً على السلطان أولا، ثم على القاضي، ثم على أهل الديوان، ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله، فخلي سبيله (الرحلة ص 44)، ويطول وصف ابن جبير لمثل هذه المعاملة، وتتكرر مثل هذه المواقف المخزية والمهينة، مما يجعله يصدر حكمه على أمثال هؤلاء الأعوان الظلمة بقوله: «فإن جهادهم من الواجبات، لما يصدر عنهم من التعسف، وعسير الارهاق، وسوء المعاملة مع غرباء انقطعوا لله عز وجل، وخرجوا مهاجرين إلى حرمه الأمين (الرحلة ص 60) وكانت المعاملة في الجهات الحجازية لا تخرج عن قاعدة المعاملة السيئة فأهلها يعتقدون في الحاج ما لا يتقد في أهل الذمة.. فالحاج معهم لا يزال في غرامه ومؤنة إلى أن ييسر الله رجوعه الى وطنه (الرحلة ص 68)، وأمير مكة (مكثر) يفرض مكوساً على الحاج ما أنزل الله بها من سلطان، مما دفع السلطان صلاح الدين لأن يرفع المكوس عن الحج وجعل عوض ذلك مالاً وطعاماً يأمر بتوصيلها إلى مكثر أمير مكة ـ فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم عاد هذا الأمير إلى ترويع الحاج وإظهار تثقيفهم بسبب المكوس» (الرحلة ص 69).

فإذا كان هذا هو دأب هؤلاء الحكام الظلمة الذين استغلوا الظروف خاصة وأن السلطان صلاح الدين الأيوبي منشغل في جهاد النصارى فإن ابن جبير يدعو إلى جهاد هؤلاء «فأحق بلاد الله بأن يظهرها السيف، ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة في سبيل الله، هذه البلاد الحجازية، لما عليه من حل عرى الإسلام واستحلال أموال الحاج ودمائهم (الرحلة ص 69)، بل يذهب إلى أبعد من ذلك عندما أجاز اسقاط الفريضة عن أهل الأندلس وربما غيرهم كذلك، فمن يعتقد من

فقهاء الأندلس اسقاط هذه الفريضة عنهم اعتقاده الصحيح لهذا السبب وبما يصنع بالحاج مما لا يرتضيه الله عز وجل (الرحلة ص 69)، ولم يشفع لأمير مكة (مكثر) نسبه الشريف الاصدار مثل هذا الحكم؛ فما بالك بغيره ـ قديماً وحديثا ـ وهذا الرجل مكثر من ذرية الحسن بن علي رضوان الله عليهما، لكنه ممن يعمل غير صالح، فليس من أهل سلفه الكريم رضي الله عنهم (الرحلة ص 70) لأن أمثال هؤلاء في عالمنا الإسلامي كثيرون وخاصة انتهاب الأموال وسوء السيرة والاحتكار. يقول ابن جبير في حق نموذج منهم (والذي انتهب له أكثر، لأنه كان في ولايته يوصف بسوء السيرة مع التجار، وكانت المنافع التجارية جلها راجعة إليه. الذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلة إلي يديه فاكتسب سمتاً عظيماً. وحصل على كنوز قارونية) (الرحلة ص 128). وما أشبه البارحة باليوم.

ولم يكتف ابن جبير بنقد الحكام وأعوانهم فحسب بل الدعوة الى الثورة عليهم وجهادهم.. كما نقد الأعمال الشنيعة التي تعترض الحجاج في الطريق. وببلاد هذا الصعيد.. من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث عنها وإدخال الأيدي الى أوساط التجار فحصاً عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم ودنانير ما يقبع سماعه، وتستشنع الاحدوثة عنه كل ذلك برسم الزكاة. دون مراعاة لمحلها وما يدرك النصاب منها (ص 59) إضافة إلى الغارات المنظمة على الحجاج حتى في المناسك وبخاصة في عرفات فكانت السنة المبيت بها ـ عرفات ـ لكن ترك الناس ذلك اضطراراً بسبب خوف بني شعبة المغيرين على الحجاج في طريقهم إلى عرفات (الرحلة ص.ص 128ـ129).

إن ابن جبير يقدم لنا نماذج من الأعمال الشنيعة التي ترتكب في البلد الحرام في الشهر الحرام دون وارزع ولا رادع الا ما رحم ربي ولم يكن هجوم ابن جبير على هذه المظاهر والمعاملات والأعمال الشنيعة فقط بل وجّه نقده وهجومه أيضا على المظاهر السلبية في المناسك وكذلك مظاهر الفساد في رحاب الكعبة المشرفة من عنف وزحام (الرحلة ص.ص 124ـ125).

وكانت في يوم الانحدار... بين سودان أهل مكة وبين الأتراك العراقيين جولة وهوشة، وقعت فيها جراحات وسلت السيوف وفوقت القسي ورميت السهام

وانتهبت بعض أمتعة التجار... يجري هذا كله في الحرمات فما بالك في غيرها...

فظهر من تزاحمهم وتطارحهم على الباب الكريم ووصول بعضهم على بعض وسياحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم غدير من الماء، أمر لم ير أهول منه مما يؤدي إلى تلك المهم وكسر الأعضاء (الرحلة ص 134).. وربما زاحمهم في تلك الحال بعض نسائهم فيخرجن وقد نضت جلودهن طبخاً في مضيق ذلك المعترك الذي حمى بأنفاس الشوق وطيشه (الرحلة ص 134). ولم يكن الزحام في البقاع المقدسة فحسب بل امتد إلى خارجها في الطريق على الماء أمراً هائلا لا يكاد يشاهد مثله في تغلب المدن والحصون بالقتال، وحسبك ان مات في ذلك الموضع ضغطاً بشدة الزحام وغطاً تحت الماء بالأقدام سبعة رجال بادروا لمورد الماء فحصلوا على مورد الفناء (الرحلة ص 151).

إن ابن جبير لا يتردد في أن يبدي رأيه فيما يرى ويشاهد من مظاهر الفسادفي طريقه إلى بغدادوينقد ذلك نقداً شديداً ومما سجلنا في مشاهدته ظاهرة التطفيف في الكيل والميزان، وعلى يد مخسر للميزان تعرضه... ولا تقع من أهل موازنها ومكايلها الا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف لا يبالون في ذلك بعيب، فأنهم من بقايا مدينة قوم النبي شعيب (الرحلة ص.ص 157ـ158)، هكذا نجد ابن جبير يعرض لنا جانباً من المظاهر السيئة التي لا تليق بالمجتمعات المتحضرة خاصة إذا تعلق بالمجتمع الإسلامي وفي البقاع المقدسة أثناء موسم الحج.

أهم المحاور التي تدور حولها الرحلة:

إن المحور الديني هو الأساس في هذه الرحلة حيث أن المنطلق هو أداء فريضة الحج، مع الاهتمام بأمر الحجاج وأحوال المسلمين والغرباء منهم خاصة في البيئات المختلفة المشرقية وغيرها، وهذا المحور جعل ابن جبير يصدر أحكاماً تناسب المقامات ويدلي بآرائه بحسب المواقف والمعاملات سلباً وإيجاباً وأحكام ابن جبير وآراؤه تنقسم إلى قسمين: ذاتي وموضوعي، ويتجلى ذلك بوضوح تام عند التعرض للمعاملات والعلاقات التي شاهدها وعاينها:

- بين الحكام والمسلمين وبين المحكومين منهم...
- بين أعوان السلطان وبين الحجاج..
- بين المشارقة وبين المغاربة (الغرباء والأسرى)
- بين حكام النصارى وبين المسلمين (وخاصة الأسرى منهم).
- بين أفراد المجتمع.

حيث نلاحظ أن الجانب الذاتي يبرز بوضوح عنده هو الاعتناء بالحجاج والغرباء والمغاربة للعلاقة العاطفية بهم بشكل خاص لأنه واحد منهم من جهة الانقطاع عن الأهل والبلد، ومن جهة القطرية التي لم يتخلوا منها في أثناء اصداره الأحكام والآراء ويدخل ضمن هذا المحور أيضاً تدين ابن جبير وتقواه وورعه (في إطار المذهب السني) وهو ما يعكس بوضوح موقفه من الفرق الإسلامية الأخرى، والطوائف الدينية المخالفة وإصدار الأحكام المتطرفة بحق هذه الفرق، خاصة الفرق التي يراها مغالية مثل الاسماعيلية التي يصفهم بالملاحدة.

أما الموضوعية فتتجلى في ذكره للمظاهر الإيجابية التي تصدر عن الآخرين (المشارقة عامة) في حق المسلمين والحجاج والغرباء منهم خاصة أو الاحساس إليهم، بشكل من أشكال أعمال الخير والبر أو العلم أو الوعظ، ولو تعلق الأمر بالحكام غير المسلمين ـ النصارى ـ عندما يعاملون المسلمين معاملة حسنة يذكره ويسجله تقريراً للحقيقة والواقع وإيحاء منه لتبيان المغالاة في المعاملة في بعض المقامات والظروف، أو عندما يتعلق الأمر ببعض السلوك السيء الصادر عن الحجاج أنفسهم في المناسك أو في الطريق.

ويتفرع عن هذا المحور الديني أيضاً السخط والاعجاب، لحسب المواقف والأحوال وهو ما يعلل موقفه خاصة من السلطان صلاح الدين الأيوبي وإعجابه به بوصفه رمزاً للحاكم العادل، الساعي إلى خدمة المسلمين ـ عامة ـ وضيوف الرحمان خاصة، بالإضافة الى جهاده لتحرير، بيت المقدس وانشغاله بالحروب الصليبية في المشرق، كما نجد في أسلوب الدعاء ـ المتمثل في الجمل الدعائية ـ التي ترد في نهاية كثير من الفقرات ما يجعل الروح الدينية تطغى على مضمون الرحلة ـ وخاصة وأنها حجازية ـ وهذه الروح تظهر لنا عاطفته الدينية في المواقف المتنوعة وبخاصة وهو يدخل الحرم المكي وعند توديعه الروضة الشريفة في المدينة المنورة[22].

- المحور الاجتماعي: المتمثل في تقديمه لنا صوراً عن المجتمعات المختلفة في عاداتها وتقاليدها[23] وفي علاقاتها.... ومعاملاتها[24] بالإضافة إلى الإشارة إلى مرافق الخدمات الاجتماعية مثل المستشفيات (المارستانات) الموجودة في المدن التي مرّ بها [25]، وغير ذلك، مما يدخل في هذا المحور.

- المحور الاقتصادي والتجاري والصناعي، ويتمثل في العلاقات الاقتصادية والتجارية بين المسلمين وغيرهم - من النصارى[26] في السلم والحرب، والصناعة المتمثلة خاصة في السفن والمراكب الصغيرة[27]، إضافة إلى التعرض إلى الزراعة ونظام الري وتوزيع المياه بواسطة العيون، والتجارة ونظام المكوس والجمارك، والمراكز التجارية ونظام الأسواق والسلع التجارية دون أن يغفل الإشارة إلى ذكر لألوان الغوص على اللؤلؤ[28].

- المحور الحضاري: ويتجلى في إبراز المظاهر الحضارية الموجودة في مختلف البيئات الإسلامية وحواضرها، وهي من الكثرة في الرحلة بحيث يسهل الاطلاع عليها ويصعب حصرها، ولا نعدم في الرحلة معلومات دقيقة وان اتسمت بالطابع الخاص، والشخصي، مثل ذكره في الرحلة تاريخ انهائه حفظ القرآن الكريم[29] وهو في طريقه إلى اجتياز بحر فرعون (البحر الأحمر) نحو ميناء مدينة جدة وذكره اللعب الشطرنج في الرحلة الحجازية بقوله: "ومن شاء ممن يستجير اللعب بالشطرنج أن يلاعب عديله تفكها وإجمالا للنفس لاعبة"[30] بالإضافة إلى تسجيله ظاهرة خسوف القمر[31].

وإذا كانت الرحلة تتسم بالطابع الجدّي في الغالب، نظراً لطبيعتها - حجازية في المنطلق - ونظراً لاهتمامات ابن جبير بأحوال المسلمين وأوضاعهم بشكل عام، إلا أننا لا نعدم في الرحلة الروح المرحة والمشعة بالخفة والطرافة، مما يجعل ابن جبير بعيداً عن التزمت والتشنج خصوصاً عندما نقف معه فيقدم لنا صوراً هي أقرب إلى فن «الكاريكاتور» من غيرها في المواقف الموحية بذلك، مثل الصور التي خص بها «قبائل من اليمن تعرف بالسرو»[32].

«والقوم عرب فصحاء، حفاة أصحاء، لم تعدهم الرقة الحضارية، ولا هذبتهم السير المدنية، فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية، فهم إذا

طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة لائذين بجوارها، متعلقين بأستارها فحيث ما علقت أيديهم تمزق لشدة اجتذابهم لها، وانكبابهم عليها في أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب وتتفجر لها الأعين الجوامد، فتصوب فترى الناس حولهم باسطي أيديهم مؤمنين على أدعيتهم متلقنين لهم من ألسنتهم.. وأما صلاتهم فلم يذكر في مضحكات الأعراب أظرف منها، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم، فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقراً، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ومنهم من يسجد الاثنتين والثلاث والأربع، ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلاً وأيديهم مبسوطة عليها ويلتفتون يميناً وشمالاً التفات المروع ثم يسلمون، أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد، وربما تكلموا في أثناء ذلك وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به، ووصاه بما شاء ثم عاد الى غير ذلك من أحوالهم الغريبة..[33].

هذه صورة تمثل بجلاء ما يمتاز به ابن جبير من روح تتسم بالمرح والظرف والخفة والفكاهة، وفي الرحلة تجد غيرها[34]، تدعم هذا الاتجاه على الرغم من ارتباط بعضها ـ كما هو الحال مع قبائل السرو ـ بالدين والعقيدة فإن ابن جبير لم يقدم لنا مثل هذه الصور من موقف «الفقيه» أو «القاضي» أو الساخط على مثل هذه السلوكات أثناء أداء العبادة ـ الصلاة ـ بل قدمها من موقف المتندر والفكه.

وأحسب أن مضمون الرحلة وتعدد محاوره وتنوع أجوائه أثرى مما ذكرته ولكني حاولت جهدي لكي أقدم أهم ما يمكن تقديمه مما يجب أن يقدم.

منهج الرحلة وأسلوبها :

يدخل أدب الرحلات في إطار الأدب الوصفي، لأنه يعتمد الوصف وسيلة للتعريف بما شاهده الرحالة وعاينه أثناء قيامه بالرحلة. ورحلة ابن جبير المدوّنة لا تشذ عن هذه القاعدة، وابن جبير عني في رحلته عناية فائقة وشديدة بوصف المدن التي اعترضته في أثناء السفر في البحر وهو ما جعله يضفي على رحلته طابعاً ذاتياً إذ أنه ضمّنها أحاسيسه ومشاعره، فكان الوصف ممزوجاً بالتعبير، وكانت الموضوعية

ممزوجة بالذاتية، وبالإضافة إلى الأحاسيس والمشاعر التي نجدها في أثناء الرحلة حول أوضاع الحجيج والأسرى من المسلمين عند النصارى وأحوال المسلمين عامة والغرباء منهم خاصة ـ بما فيهم المغاربة ـ وغير ذلك نجد مواقفه من بعض الجهات والفئات والطوائف والقبائل والحكام والأعوان وآراءه في كل ذلك.. ولقد ركز في وصفه للمدن التي مرّ بها، والمنازل التي حلّ بها، والحواضر التي طاف بها وتجوّل بها، على أهم معالمها الحضارية واشهر خصائصها وصفاتها «فقد عني في جميع المدن التي وصفها بالمساجد وقبور الصحابة ومشهورين والمستشفيات والآثار المعروفة، وعني في مصر خاصة ببعض النواحي الاجتماعية وفي العراق بالوعظ والوعاظ، وفي الشام بالنواحي السياسية والاقتصادية عند المسلمين...[35]»، وطبيعي أنه عني في كل مدينة بالخصائص التي تمتاز بها.. كما نجد ذلك في ذكره لمنار الاسكندرية، وأهرام القاهرة ومقياس جزيرة الروضة، ومعبد دندرة وآثار مكة الإسلامية والمسجد الأموي بدمشق وما إلى ذلك.

أما طابع منهج ابن جبير في وصفه للمدن فإننا نستخلصه من أوصافه التي خص بها تلك المدن الكبيرة والحواضر المهمة التي طاف بها، وكانت الاسكندرية أولى هذه المدن التي نزل بها بعد أن قطع المسافة التي تفصله عن الأندلس بحراً وكانت أول مدينة طبق عليها المنهج الذي اتبعه في تدوين رحلته[37] لأن الأمام السابقة تعرض لها بالتسمية فقط ويخضع منهج ابن جبير في وصفه للمدن إلى عدة مقاييس منها:

1 ـ المدة التي قضاها في المدينة الموصوفة، وهو يأثر سلباً وإيجاباً في إسهابه وإيجازه.

2 ـ أهمية المدينة الموصوفة قيمتها من حيث الموقع والتاريخ والاقتصاد.

3 ـ موقفه منها ومن سكانها وحكامها وأعوانهم.

لقد استهل ابن جبير حديثه عن الاسكندرية بفقرة عامة مع إشارات مركزة إلى خصائصها ومميزاتها من حيث الموقع واتساع المباني وضخامتها، وبصورة عامة كان الرحالة ابن جبير يعني في وصف المدن بثلاث نواحٍ: المرافق والمشاهد، والارباض، وتضم المرافق في خلده: الأسوار والحصون، والمساجد والمارستانات والمنازل والشوارع والأبواب، وتضم المشاهد، المقابر والموالد وآثار الأنبياء والعلماء

والأولياء والمواقع الإسلامية وتضم الارباض: الأحياء والضواحي»[38].

كما عني ابن جبير بالمغاربة والأندلسيين الذين اطلع على أحوالهم وعاين أوضاعهم فكان يصف ذلك ويتبين موقف الناس والحكام منهم في كل قطر يوجدون به وكان لا يترك المناسبة تفوته دون أن يثني على من أحسن إليهم معدداً إحسانه إليهم كما أنه كلن ينبذ كل من يجفوهم ويسيء إليهم. والرحلة في مصدرها تعتمد على منهج المشاهدة والمعاينة (والتنصيص في التدوين يؤكد ذلك) حيث نجد لفظه «شاهدنا وعاينا» ومشتقاتهما عشرات المرات في تضاعيف «المدونة»[39]، كما اعتمد على «السماع» و«الأخبار» و«الرواية»[40] مع تمحيصها، قدر الامكان، والتحفظ في إيرادها أو تقديمها ترجيحا أو تقديراً لا قطعاً وجزماً، والأمثلة كثيرة منها قوله في الرحلة: «تقديراً لا عيانا (ص 44)، وهو مشهور لكنا لم نعاينه (ص 49)، والمقيد يبرأ من القطع بصحة ذلك (ص 50) ومنه من يزعم غير ذلك، وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل (ص 53) و«زعم (ص 66) وعلى زعم أحد الأعراب» (ص 139) وهذه تلقيناه من ألسنة أشياخ أهل البلد، فأثبتناه حسب ما نقلوه إلينا والله أعلم بصحة ذلك (ص 154) وقوله: في هذا المشهد بناء حفيل على ما ذكر لنا، لأنا لم نشاهده بسبب أن الوقت في الكوفة ضاق عن ذلك، لأنا لم نبت سوى ليلة (ص 154) وقد أحصينا لهم (ص 160) وهذا القول أقربها إلى الصحة لأن لم نعاينها (ص 215) وهذا كله مما يزيد في توضيح المصادر التي اعتمدها الرحالة ابن جبير وتدوينه من خلال الصبغة الجدية على المدونة والموضوعية ما أمكن باعتماده على منهج التدقيق والتمحيص والتثبت أو الترجيح أو التقدير أو التشكيك وهو ما يجعل مستويات مادة الرحلة متفاوتة نسبياً في القيمة تبعاً لذلك. ويدعم منهجه هذا بأسلوب المقارنة في وصف المدن خاصة، وفي الغالب تكون بين المدن الشرقية والمدن الأندلسية ولو على سبيل التقريب أو التشبيه في الإطار العام دون تفصيل مثل قوله «وشأن هذا الموضع عجيب جداً فغاية حسن القرى بشرق الأندلس أن يكون لها مثل هذا الموضع جمالاً أو تتحلى بمثل هذه العيون (ص 173)، أو قوله: وتشبهها من البلاد الأندلسية جيان ولذلك يذكر أهل النسرين عند افتتاح الأندلس، نزلوا جيانا وتأنساً بشبه الوطن وتعللا به مثل ما فعل به أكثر بلادها حسب وهو معروف (ص 180)، أو وتجد في هذه البلدة «بعض شبه بمدينة إشبيلية من بلاد الأندلس وهي العلة التي أوجبت

نزول الأعراب أهل حمص فيها، حسبما يذكر، وهذا التشبيه وإن لم يكن بذاته فله لمحة من إحدى جهاته (ص 182)، ويذكر عن صقلية قوله «وكفى بأنها ابنة الأندلس في سعة العمارة (ص 225) وقوله فيها أيضاً« قرطبية البنيان (ص 230)، أو «فشبهناها بقنبانية قرطبة» (ص 231) ونجده يقارن مدينة عكا بالقسطنطينة» والمشبه في عظمها بالقسطنطينية (ص 211).

وهكذا جاءت رحلة ابن جبير ثرية في مضمونها مدعمة بمنهج ينزع نحو الموضوعية ما أمكنه إلى ذلك سبيلا، يدعمه المسار الجغرافي في مسلك الرحلة ذهاباً وإياباً مع التسلسل الزمني الذي استغرقته الرحلة، استطاع من خلال ذلك ابن جبير أن يقدم لنا عملاً أقرب إلى التكامل كثير الفائدة في مختلف المجالات عظيم المنفعة يقول ابن عبد الملك المراكشي: «وهذه الرحلة التي وصف وذكر مناقله فيها ومشاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع الصناع وهو كتاب مؤنس ممتع مثير سواكن النفوس إلى الوفادة على تلك المعالم المكرمة والمشاهد المعظمة (ص 41)، غير أننا نجد في بناء هذه الرحلة نوعاً من الخلل في البناء الفني لهذا التدوين ناتج عن الاستدراك (ص 57)، أو الاستطراد (ص 70)، ولقد نص على ذلك بلفظة سريعة مثل «رجع» (ص 58)، أو عبارة نرجع إلى ذكر (بغداد) (ص 161) أو بعبارة أوضح وأجلى مثل تصريحه وقد خرج بنا الكلام عن مقصده فلنعد إلى ما كنا بصدده ص 178) والاستطردات عند الإشارة بصلاح الدين الأيوبي وهي كثيرة في الرحلة... وهذا يدل دلالة واضحة على أن البناء لم يخل من عدم الأحكام نتيجة هذا الخلل الواضح والبيّن على الرغم من اعتماده على أسلوب المذكرات ـ التقييدات ـ التي يتميز بالتسلسل والتعاقب في المكان والزمان.

الأسلوب: وأما من حيث الأسلوب فإنه يمتاز بالدقة في استعماله للألفاظ واليسر فهي سهلة المأخذ مألوفة في الغالب الأعم مع السهولة في العبارة والوضوح في الأسلوب ولقد أقر بذلك ابن الخطيب بقوله: «نثره بديع وكلامه المرسل سهل حسن»[42]، ولقد اتبع في رحلته الأسلوب المرسل في الغالب مع إيراد بعض الفقرات المسجوعة القليلة والقصيرة.. إن أسلوبها «المرسل» و«السهل» هو ما جعل رحلة ابن جبير لا تفقد قيمتها بمرور عصرها أو درجته، وتحتفظ برونقها طوال هذه

المدة، وهو ما جعله بالتالي يأثر في غيره من الكتاب في أدب الرحلة الذين جاؤوا بعده فنقلوا أجزاء كبيرة من رحلته كما نجد ذلك في رحلة ابن بطوطة إذا احتوت على نقول منها في وصف كل من حلب ودمشق وبغداد، وتتضمن رحلة ابن جبير بعض الاقتباسات من القرآن الكريم في مواطن متعددة[43] وبعض الأحاديث النبوية الشريفة[44]، وبعض الأشعارالتي تعبر عن مقتضى الحال من المواقف والأحاسيس والمشاعر[45] مع استعمال قليل للأمثال[46]، إن لم نقل ان استعماله كان نادراً، مع العلم بأنه أنهى حفظه للقرآن الكريم وهو في طريقه الى الجهات الحجازية، وأنه بالإضافة إلى ذلك شاعر وأنه في نهاية حياته جلس يحدث بالديار المشرقية وبخاصة الاسكندرية.

الخـاتمـــة

لقد سار ابن جبير بأدب الرحلة شوطاً كبيراً في تطوره من حيث المضمون والشكل اذ الرحلة المدونة هي صورة عن الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية والمذهبية والاقتصادية والحضارية في المشرق العربي في عصره على الرغم من التشكيك في صحة تصنيف ابن جبير لها، يقول ابن عبد الملك «وكان أبو الحسن الشاري يقول: «إنها ليست من تصنيفه وإنما قيد معاني ما تضمنته، فتولى ترتيبها، ونضدها بعض الآخذين عنه بناء على ما تلقاه منه»[47] وهو ما جعلها لا تأتي كتاباً متصلاً مطرداً..[48]، والرحلة تمثل ثقافة ابن جبير واهتماماته المختلفة.. وهي مصدر مهم لكل مؤرخ أو جغرافي أو دارس اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي أو حضاري يريد أن يدرس هذه الفترة من حياة الشرق الإسلامي[49]».

الهوامش:

(1) في الإحاطة لابن الخطيب ج 2 ص 239، مولده سنة 539 هـ بشاطبة، وفي نفح الطيب النقري (ط. 10 ج) ج 3 ص 142 مولده سنة 540 هـ ببلنسية وابن عبد الملك المراكشي يورد التاريخين والمكانين معاً في الذيل والتكلة. السفر الخامس ـ القسم الثاني ـ ص 621 (الترجمة رقم: 1172.

(2) الإحاطة ج 2 ص.ص 232ـ233.

(3) مقال: رحلة ابن جبير. د. حسين نصار بمجلة تراث الإنسانية مجلد 1 ص 237.

(4) النفح (ط. 10 ج) ج 3 ص 142.

(5) الإحاطة ج 2 ص 231، الذيل والتكلة، السفر الخامس القسم الثاني ص 608 (الترجمة رقم: 1172).

(6) يذكر ابن عبد الملك المركشي في الذيل والتكلة ان لابن جبير مقالة في الحجازيات سماها «رسالة اعتبار التناسك في ذكر الآثار الكريمة و المناسك» كتب بها إلى وليه ابي الحسن ابن مقصير من فاس عند عودته الى المشرق في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسمائة. السفر الخامس ـ القسم الثاني ص 604 (الترجمة رقم: 1172)، ولم يشر ابن عبد الملك إلى أنها هي مدونة رحلته الأولى ص 597.

(7) النفح (ط 10 ج) ج 3 ص.ص 154ـ164.

(8) في نظم الجمان لابن القطان ص 171، والبيان المغرب لأبن عذاري ج 3 ص 110، وتاريخ ابن خلدون ج 6 ص 501، توفي بسبب الطاعون الذي حل بالمغرب في سنة 571 هـ وأتى على جموع كثيرة منهم بعض السادة الأمراء الموحدين.

(9) الرحلة (ط. د. محمد مصطفى زيادة) ص. ص 69ـ70.

(10) الرحلة: ص 41، 44، و 48.

(10) مكرر الذيل والتكلة: س 5/ ق 2 ص.ص 605ـ606 (ترجمة رقم 1172).

(11) الذيل والتكلة س 5/ ف 2 ص 606 (ت: رقم 1172).

(12) المصدر نفسه.

(13) مقال ابن جبير الأندلسي شاعرا، محمد مصطفى بهجت، مجلة الرافدين، عدد 9 ـ 1978 ص 418.

(14) الذيل والتكلة السفر 5 القسم 2 ص 605 (الترجمة رقم 1172).

(15) الرحلة ص 60، 65، 68، 69، 70، 128.

(16) الرحلة ص 155، و 200 و176 و180.

(17) الرحلة ص 50، 51، 115، 147، 159، 160.

(18) الرحلة ص 201، 211، 223، 225.

(19) الرحلة ص 211.

(20) الرحلة ص 131، 133، 134، 151.

(21) الرحلة ص. 71، 73.

(22) الرحلة ص 148.

(23) الرحلة ص 61.

(24) الرحلة ص 151.

(25) الرحلة ص 52.
(26) الرحلة ص 201، 211.
(27) الرحلة ص 65.
(28) الرحلة ص 64.
(29) الرحلة ص 62 (صحوة يوم الأحد 16 صفر سنة 579 هـ) وعمره نحو 40 سنة.
(30) الرحلة ص 62.
(31) الرحلة ص 61 (بتاريخ ليلة الأربعاء 16 صفر سنة 579 هـ) وعمره
(31) الرحلة ص 61 (بتاريخ ليلة الأربعاء 15 من سهر صفر 579 هـ).
(32) الرحلة ص 104.
(33) الرحلة ص 105.
(34) الرحلة ص 105، 155، 206، 207.
(35) مقدمة د. حسين نصار في تحقيق رحلة ابن جبير ص ـ د.
(36) المصدر نفسه.
(37) مقال رحلة ابن جبير ـ مجلة التراث الانسانية مجلد 1 ص 241.
(38) المصدر نفسه.
(39) الرحلة مثل : ص 45، 49، 52، 55، 56، 57، 58، 63، 68، 70، 73، 94، 103، 106، 121، 147، 156، 158، 167، 170، 172، 173، 199، 204، 205، 208.
(40) الرحلة ص 45.
(44) الذيل والتكملة السفر الخامس ـ القسم الثاني ـ ص 579 ـ 598 (الترجمة رقم 1172) والإحاطة ج 2 ص 231.
(42) الإحاطة ج2 ص 234.
(43) الرحلة ص 01، 124، 125، 133، 159، 160، 184.
(44) الرحلة ص 71، 102، 105.
(45) الرحلة ص 90، 110، 148، 149، 157، 161، 165، 170، 172، 217، 220، 231، 242.
(46) الرحلة ص 159، 174.
(47) الذيل والتكملة، السفر الخامس ـ القسم الثاني ص 568 (الترجمة : 1172).
(48) الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام ج 3 ص 93 (الترجمة رقم 246) وتراث الانسانية مجلد 1 ص 245.
(49) أدب الرحلة عند الغرب، د. حسني محمود حسين ص 46.